مظاهر التعريب

الأستاذ محمد بن تاويت

كثيرا ما قلنا ان التعريب كان منصبا على الالفاظ ، بينما التعريب الآن منصب على المعاني

فما معنى هذا الكلام ؟

معناه ان العربي ، كان اذا جلب كلمة او جلبت اليه ، يستغني بالباسها لباسه العربي ولو بغطاء الراس مثلا او الحذاء

جاءته كلمة « كروان » بمعنى القافلة ، فقال فيها قروان ، وغطى راسها بالالف واللام فاصبحت القروان او القيروان ، وبذلك صارت الكلمة تتمتع بكل الحقوق التى تتمتع بها الكلمة العربية فى اعرابها ، فلا تمنع من الصرف لعلة العجمة ، لانها قد ارتفعت عنها بهذا العقال ، الذى هو هنا الالف واللام ، كما حدث فى الهند والصين والروم والترك.

سمع النبي عليه الصلاة والسلام ، من سلمان الفارسي ، كلمة خندق فاستفسره عن معناها، وهي اسم مفعول ، من كندن الفارسي بمعنى الحفر ، فكانت كنده ، وعربت بان ابدلت الهاء التى لا تنطق قافا ، فصارت خندق ، فتقبلها النبي ولم يأنف من استعمالها بل اشتق منها خندقوا ، فسميت الغزوة بغزوة الخندق .

ولعل الكاف كانت فى النطق تميل الى الخاء ، كما هي فى اليونانية والعبرية ، وهي ما تسمى عند مقرئي المغرب بالكاف المسوس ، ولهذا نطقت خندق.

أما ابدال تلك الهاء « المخفي » كما يسميها الفرس ، قافا ، فذلك ما كان مطردا فى العربية ، كما كان مطردا ايضا ابدالها جيما ، كما فى كلمة «برنامه» التى اصبحت برنامج ، وقد عقد سيبويه فى كتابه فصلا سماه « باب اطراد الابدال فى الفارسية » فذكر من هذا كوسه وموزه وكربق وقربق ، الى غير ذلك من الكلمات ، التى يكتفي فيها بهذا الحذاء العربي فى نهايتها ، اعني الجيم او القاف .

وطبعا انهم لا يقبلون الحروف التى لا يستعملونها ولا يألفون اجراسها ، فالحرف P ينقلب باء او فاء ، والحرف G ينقلب جيما غالبا ، والحرف V ينقلب واوا فى الغالب كذلك .

وبعد هذا لابد من انسجام فى الهيئة والامتداد، فتبدل بعض الحركات بغيرها او تحذف بعض الحروف التى تتعدى الكلمة طورها فى العربية ، ان لم تحذف منها تلك الحروف ، فى الغالب ايضا ، ولم يتحملوا هذا للاضطرار ، بل اخذوا كلمة «جلاب» وهي ماء الورد .

وهكذا كانت مشكلة التعريب فى القديم ، مسألة التعليم بمدلولنا ، ولم تكن مشكلة التعريب كما فهمنا ، فالقضية تهذيب لفظي بوسائل فى غاية البساطة .

لما ترجمت العلوم الى العربية ، اتخذ فيها ما كان معهودا من ذي قبل ، فقيل ، فلسفة فى

Philosophia وفيلسوف Philosophos وقيل ، قاطيفورية Kategoria والسفسطة Sofisikae وايساغوجي Isagoge وغير ذلك من الكلمات اليونانية الاصل ، ولم تجد العربية الفسيحة الصدر فى هذا حرجا او احراجا ، وقد وجدنا الابهري من رجال القرن السابع يؤلف فى المنطق رسالته « ايساغوجي »

كما عربوا الطوس من	Taos
والزنار من	Zone
والقزدير من	Kassitoros
والابريز من	Ibrizón
وابليس من	Diáblos
والترياق من	Thériaka
والقرطاس من	Chartés
والجنس من	Genos
والاثير من	Esthlós
والاجرومية من	Gramaatika
والزفت من	Asfaltos
والقرنفل من	Karyofyllon
والجبص من	Gypsos
واصطفلينة من	Staflinos
والاسطول من	Sotolos
واسطرلاب من	Astron-lambauo
والدرهم من	Drachmé
والقادوس من	Kados
والاطلس من	Atlas

ولا شك ان كلمات من هذه عرفتها الجاهلية ، كالقرنفل والدرهم وابليس ، ولكن معظمها لم يعرف الا عند الترجمة ، ولا يعزب عن البال ، ان كلمة الاجرومية ، ليست منسوبة الى ابن آجروم المغربي، كما يتوهم ، فان القضية اتفاقية ، وكثيرا ما يقع هذا الاتفاق فى اللغات .

هذه امثلة بسيطة ، اذا كانت الحياة على نمط من البساطة ، اما الآن فقد تعقدت الحياة وتعاقبت المخترعات وازدحمت فى هذه الدنيا المخلوقات ، فاصبحت وكأنها دار تسكنها عائلة واحدة ، لابد من التعارف التام فيها والاتحاد فى مدلولاتها ومزاولة كل فرد منها ما يزاوله الآخر

فصارت مسؤولية اللغة شاقة ومتطلباتها كثيرة ، وعليها ان تقوم بأعباء ذلك وعليها ان تستنفد كل ما فى طاقتها من قوة فهل العربية قادرة على هذا ؟

نعم ، هي قادرة ، لو مكناها من قدرتها ، ونفسها بطول الانفاس ، ان لم نكبته فيها .

والعربية ، الى جانب احتمالها للالفاظ ، تحتمل كذلك ما نطلبه من معان فيها ، ان كلماتها لا تنفد ، بما فيها من اشتقاق وخيالها بحمد الله خيال خصب ، يسعفها بالتشبيه وما ينشأ عنه من استعارات ، ويسعفها بهذا التداعي الذى تتولد منه الكنايات ، ولا يبخل عليها استعمالها العتيق ، بهذه المجازات المرسلة ، ثم النحت .

لقد تقدمت فى الاشتقاق ، كلمة « خندقوا » من الخندق ، ولنا أن نزيد على هذه الصيغة كل الصيغ المعروفة فى المادة العربية نفسها ، فتسعفنا فى الافعال بأنواعها واوضاعها ، وتسعفنا فى الصفات بأنواعها كذلك واوضاعها ، وتسعفنا فى اسماء الزمان والمكان والمصادر على اختلافها ، كما تسعفنا الكلمة العربية ، عند الاحتياج الى نسلها من اولاد واحفاد

هذا الاشتقاق الطليق، لا نجده فى غير العربية ونجد امثلة من البواقي فى غيرها ، مثل ما نجد فى الفارسية والتركية والفرنسية ، ازاء البطاطا ، حيث شبهتها جميعا بالتفاح الذى اضافته الى الارض ، فقالت الفارسية « سيب زمين » والتركية « ير الماسي » والفرنسيةPomme de terre

وسمت الاسبانية ملابس العمال ، ذات القطعة الواحدة « Mono » اي قرد ، كما سمت الآلة التى ترفع بها جوانب السيارة باسم « Gato » اي الهر ، لانها تنشب مخلبها فى جانب السيارة ولم تأنف ان تسمى بالبق « Chinche » المسيمرات التى تثبت الورق ونحوه .

وقالت الانجليزية للقطار السائر تحت الارض Underground اي تحت الارض ، مجازا مرسلا، كما استعمل هذا المجاز المرسل فى نحو «سندويتش» « Sanduich » و«كرافاط» « Cravate » وكان الاصل فى هذين انهما اسمان لرجلين استعملاهما .

وأمعن الالمان ، كما نمعن نحن فى الاشياء لنستخرج اسماءها ، بدقة وطبق الاصل ، فسموا « الهيدروجين » باسم Wasserstoff

فركبوا الاسم من كلمتين Stoff اي جوهر ، و Wasser اي ماء ، فصار الاسم هكذا ، الجوهر المائي ، او جوهر الماء (كما في الفارسية والتركية مولد الماء)

وقد كلفهم هذا الاعتزاز كثيراً من العنت . اضطروا معه ، الى تركيب اسم لمسمى واحد من كلمتين او كلمات ، في بعض الاحيان ، فلا يكتفون غالبا بالنحت ، الذي نجده في جل اللغات ، ومنها العربية .

وقبل ان نأتي بأمثلة من العربية لهذا النحت . نرى ان نقف وقفة قصيرة ، عند اصله اللغوي ..

فالنحت اصله ، النشر والقشر والقطع في الصلب من المواد ، كالخشب والحجر ونحوهما . وقد يكون هذا من قطعتين ، كما ينحت النجار ، خشبتين ويجعلهما قطعة واحدة ، كما يكون من قطعة واحدة ، وهو الاصل ، كالنحيتة التي تنحت من جذم شجرة ، على هيئة الجب للنحل ، وهذه النحيتة هي المعروفة عندنا باسم الجباح ، ومن هذا قول الاعشى :

لست منتهيا عن نحت أثلتنا
ولست ضائرها ما اطت الابل

اما النحت في الحجر ، فمنه قوله تعالى « وتنحتون من الجبال بيوتا فرهين »

هذا ما يتعلق ، باصل المادة من اللغة .

واما معنى النحت في الاصطلاح ، فهو صوغ كلمة من كلمتين فأكثر .

ويدخل في هذا التعريف ، تركيب كلمة من كلمتين ، مما تناوله النحاة ، في عدة ابواب من كتبهم . وفي الالفية نجد التعرض للتركيب المزجي، في باب العلم، وباب ما لا ينصرف ، وباب النسب ، كما نجد الاشارة الى المركبات عامة في ابواب غير هذه .

وجملة القول ان النحو تعرض للمركبات من الاسماء الا ان تعرضه هذا كان لمجرد الاحكام النحوية والصرفية الواجب تطبيقها عليها في الجملة .

نعم ان « الكتاب » لسيبويه لم يقف عند تطبيق الاحكام ، بل وقف عدة وقفات، كان منها ما يتصل بالوصف ، وتسجيل خطوات اللغة . وموقفها من طبيعة الاشياء ، فكان منها بعض اللمحات عن موضوعنا هذا ، مثل « باب الحكاية التي لا تغير فيها الاسماء عن حالها » فالتركيب اذن معروف بين كلمتين عند النحاة ، قديما وحديثا .

اما النحت بهذا الاسم فقليلا ما يتعرض له النحويون . ومن هؤلاء الخضري ، اذ يقول فيه « وهو ان يختصر من كلمتين فاكثر ، كلمة واحدة، ولا يشترط فيه حفظ الكلمة الاولى بتمامها بالاستقراء ، خلافا لبعضهم ، ولا الاخذ من كل الكلمات ، ولا موافقة الحركات والسكنات » .

وبهذا نعمم كلمة النحت في تركيب الكلمة من كلمتين وفي اختصار كلمة من كلمتين او اكثر ، والنوعان معا موجودان في العربية ، وفي جل اللغات غيرها ، وان كان بعض منها يميل الى التركيب اكثر مما يميل الى الاختصار ، على عكس العربية . كما سنرى :

تقول العربية « البسملة » و « الحمدلة » و « السبحلة » و « الحوقلة » و « السمعلة » ، من قولنا : « بسم الله » و « الحمد لله » و «سبحان الله » « ولا حول ولا قوة الا بالله » و «السلام عليكم » ، كما تقول « الهيللة » و « الحيعلة » . ويزعم ابن فارس ان كل ما زاد على ثلاثة ففيه نحت ونقول « التحبيذ » كما نقول غير هذا من جمل عديدة ، ونشتق من ذلك الافعال وغيرها مما يشتق من كل مصدر ، وهذا ايضا مما تمتاز به العربية وتفضل على غيرها ، فان باقي اللغات ، تستعمل هذا النحت في حالة معينة ، تستوجب منها هذه العملية ، وتقف عند هذا الحد ولا تتعداه غالبا فهي في ذلك تلتزم ما التزم — غالبا — في اسماء الافعال والاصوات من العربية ، وهذا الباب ايضا ، مما توسعت فيه العربية ، بخلاف غيرها .

مثلا ، نجد الالمانية تمعن في حقائق الاشياء، وتحاول ، مثلنا ، ما امكنتها الحيلة ، ان تدخل المعاني الى لغتها ولا تدخل اليها الالفاظ ، سواء منها ما كان مفردا وما كان مركبا ، فمن المفردات ، نجد كلمة التاريخ ، غير مستعملة عندها ، كما هي في باقي اللغات الاوربية ، بل اشتقت لها من مادتها الالمانية كلمة سرد Gescichte ولكن المؤرخ Historiker والوصف hietorisch فهي اذن لم تبق حرة طليقة وكذا الامر في المركبات،

وتقدم انها سمت «الهيدروجين» باسم أصل الماء او جوهر الماء ، هكذا Wasserstoff ماء Wasser ومادة Stoff مركبين وهي فى هذا قد استعانت بأصل الكلمة اليونانية hudór اي ماء ، و gen اي اصل من مصدر genna-ein فحلت مشكلتها ووقفت عند هذا الحد بالرغم من أن لها فى لغتها روافد عديدة ، حيث انها تحتوي على عدة لهجات تغنيها عن غيرها غالبا .

ومهما يكن ، فاننا بصدد العربية ، وموقفها من عملية النحت الذى عرفه ابن فارس بقوله « تؤخذ كلمتان وتنحت منها كلمة آخذة منهما جميعا» فقد راينا انها تجمع بين الطريقتين فيه ، والقدامى حاولوا احصاء المنحوت فىالعربية ، فوقف بعضهم عند بضعة عشر من امثلته ، وآخرون لم يتعدوا او لم يصلوا بها الى المائة .

غير أن ابن فارس جرى بعملية النحت اشواطا، قارب بها نحو الألف ، حيث يرى أن اكثر الرباعي والخماسي منحوت من كلمتين .

والواقع ان هذا العدد لا يعنينا بقدر ما يمكننا من الحرية فى عملية النحت ، الذى اصبحت الحياة المعقدة تاح علينا فيه ، واصبحت الاجناس البشرية، تتقارب فيما بينها وتكون لها مجتمعات على مستوى الدول عامة أو على مستوى جماعة منها او على فكرة من الافكار ، بعد المخترعات العديدة ، التى قد تتطلب مئات الاشياء وآلاف الأدوات ، وكل ذلك لابد من تسميته مركبا بعد ان كان مسمى مفككا او على انفراد أجزائه ، فكان الاتوموبيل والتيلفون والتلفراف ثم التلفزيون والنيلون ، هذه الاشياء تعد من ابسط ما واجهنا به النحت ، كما واجهنا بالديموقراطية والديكتاتورية والنازية ونحوها ، وكانت اليونسكو والمخترعات الكيماوية مما وجدت لها حلا فى اللغات ، فكيف بنا الآن أمام المخترعات الفضائية التى تتألف من مئات الاشياء وآلافها ؟

وعلى كل حال فانا من استعراضنا للوسائل التى تستعملها العربية فى تعبيرها ، وجدنا منها ما استعمل ترفا ، كالتشبيه والمجاز عموما وكالكناية ، وما استعمل بداعي الحاجة ، كالاضافة والنسب والاشتقاق الذى يطبق على هذه جميعا ، كما يطبق على غيرها فيما سنرى وعلى العموم فقد دخلت الاولى فى منطقة تجميل الكلام ، وهي « فن البلاغة » ، ودخلت الباقية فى ضروريات الكلام ، فهي فى التصريف والنحو، وضربنا لذلك أمثلة باللغات الاجنبية ، وهي تعم الجميع .

ومن تلك الامثلة ، ادركنا انه لا حدود فاصلة تامة بين النوعين المذكورين ، فقد تدعو الضرورة، فلا تجد من يسعفها الا وسائل الترف ، وقد لا تكون هناك ضرورة ، ومع هذا تستعمل وسائلها . وبذلك ينشأ المترادف ، كما ينشأ بالترف والمعرب وتعدد اللهجات . ومن المفيد أن نأتي ببعض الامثلة التى هي فى العربية مقابلة لتلك التى ذكرناها من غيرها .

فمن الاضافة وجدنا قوس قزح واكسير الحياة ، وحب العزيز فى مصر ، وحب الملوك فى المغرب ، ودار الصنعة ، وبيت المال ، ودار الثقاف بالمغرب . ومن النسب : اليماني والهندي فى الفصحى ، وفى معناه الجديد فى عاميتنا ، كالكومية والوزانية فيها ، والمهلبية بالشرق والمنصورية بالمغرب ومن الاشتقاق ، كالنشيرة ، بمعنى ما يعرف الآن باسم « الفاتورة » ويصح ان نضع فيها « النفالة » أيضا ، وكلتاهما للمفعولية والاخيرة « النفولة » . ومن الاستعارة كيد الدهر ، وراس الكلام ، ومرآة الحياة ، وشباب الزمان ، ولحن السعادة ، ودمدمة الشقاوة ، و « طعام الاثيم » و « العزيز الكريم » تهكما . ومن المجاز المرسل ، شرب الكأس ، (ولا بأس بالجرسى Jersey) والتكلم مع الدار ، وجعل الاصابع فى الاذن وعصر الخمر ، والبرتقال للفاكهة المعروفة، ومن الكناية أهل الحجر والمدر والوبر، وبيت الماء، وأهل الدار، وعريض القفا، للحمار، كما فى حديث من فهم الخيط الابيض والاسود على الحقيقة ، وريق النحل ، والتكفف وخفة اليد ... اما التشبيه ، على ما هو عليه ، فلا وجود له ، فيما نعلم بالعربية ، ولكن خليل التركي استعمله كثيرا ، فى مختصره المعروف ، وقلما يخلو منه باب من ابوابه ، وهذه امثلة قليلة من ذلك : « بكالعزى » فى اليمين ، « فى كسبيل الله » بالنذر « من كقاعد » فى الجهاد ، « فى كافريقية » بالنكاح « لا بكاعتراض » فى الخيار منه ، « من كابل» فى الصداق ، « عند كأمها » فى نكاح التفويض ، « علي كجدار » فى وليمة البناء بالعروس ، « ولو بكتقويم » فى الطلاق ، « وان بكاحرام » فى الارتجاع، و « بكمشيئتها » فى الظهار ، و « وفى كالثلاثة » ـ الايام ، وفى التطوع او غيره ان خرج ـ «لكرباط» فهذان مثالان وردا فى رفع زوجة المفقود، و«نبذ بكدباء»

فى الطعام المباح ، وهو كثير جدا . ويكلف الشراح تأويلا يدعونه بحذف المنعوت والواقع ، ان الصنيع التركي ، هو الذى شجع هذا التركي العظيم على استعماله ، المذكور ، وهو الذى جعل شوقي التركي يقول :

ودخلت فى ليلين فرعك والدجى
ولثمت كالصبح المنور فاك

فهذا التشبيه « كالمنور » هو المفعول به على الحقيقة ، كما ان ما قام مقامه ، فى قوله : « ما يشبه الاحلام » هو الفاعل فى البيت :

يا جارة الوادي طربت وعادني
« ما يشبه الاحلام » من ذكراك

وكذلك نجد لشوقي هذا الصنيع فى نحو قوله :

ولا ينبيك عن خلق الليالي
كمن فقد الأحبة والصحابا

فقد جعل الفاعل هنا ، المشبه به اداة التشبيه، ولا شك انه نظر فى ذلك الى قوله تعالى : « ولا ينبئك مثل خبير » .

فالفاعل فى الواقع المشبه به اداة التشبيه « مثل » اذ هي فى المعنى لا تستقل بنفسها ، وان كانت فى الصناعة فاعلا بنفسها ، مما اهلها فى التركيب العربي ، لما لم تؤهل له كاف التشبيه .

ولكن غير شوقي وخليل ، ان احتاج الى هذا التشبيه ، احتال عليه ، فقال : « ذهب الاصيل » و « لجين الماء » و « حمار الشيخ » ونحو ذلك ، مما اضيف فيه المشبه الى المشبه ، وقد استعمله جدا ، ابن خفاجة ، زيادة على الصورتين الاوليين خصوصا فى قصيدة له مطلعها :

يا رب ليل بته
وكانه من وصف شعرك

ومن الوسائل التى تتوسع بها اللغات فى دلالاتها ، وسيلة التعميم والتخصيص ، فالخاص يستعمل فى المعنى العام والعام يستعمل فى المعنى الخاص .

وقد تنبه الاصوليون وعلى راسهم الشافعي الى هذا فى النصوص الشرعية بصفة خاصة ، الا انهم توسعوا فيه ، حيث كان قصدهم مناط الاحكام ، ولم يكن مناط الدلالات ، بمعنى انهم اقروا بعض العمومات فى دلالاتها اللغوية وان خصصوها فى احكامها الفقهية، فجاءتها هذه الخصوصية بنحو الاستثناء الذى اجاز فيه ابو حنيفة وغيره ان يتاخر عن المستثنى منه بمدة السنوات ، او نحو الصفات التى تقصر الاحكام على موصوفاتها ؛ وهكذا مما يطول الكلام فيه ، وحسبنا ان نجد له نماذج فى باب اليمين بمختصر خليل عند قوله « وخصصت نية الحالف وقيدت » الى آخر الباب وفيه ايضا تعميم للخصوص والعام الذى اريد به الخصوص وهو الغالب .

ثم كان البلاغيون والمناطقة يعالجون هذا النوع من التوسع ، فالبلاغيون حينما امعنوا فى المجازات المرسلة وجدوا من نماذجه ما يتصل بهذا المجاز ، لدرجة ان نشا الخلاف بين الاصوليين فيه ، هل هو جميعا من قبيل المجاز هذا ؟ والمناطقة نظروا اليه وهو يقوم بمهمة الدلالة اللغوية ؛ فكان تناولهم فقهيا لغويا فى الصميم ؛ كما نجد فى السلم اذ يقول :

دلالة اللفظ على ما وافقه
يدعونها دلالة المطابقة
وجزئه تضمنا وما لزم
فهو التزام ان بعقل التزم

وقد توسع فقه اللغة الحديث فى هذه الدلالات وسلط عليها الاستقراء التاريخي والتطور الاجتماعي والجنسي وهي على كل حال خاضعة لهذا الحصر المنطقي .

ومهما يكن فالعربية عرفت فى الجاهلية هذه النماذج التى تتراوح بين التخصيص والتعميم ، وتوسع فيها الاسلام فالشهادة والصلاة والزكاة والصيام والحج والطهارة والوضوء والكفر والايمان والشرك والجهاد والتكبير والتحميد والركوع والسجود وغير هذه من مئات الكلمات التى جدت دلالاتها فى الدين الجديد ، كلها من هذا القبيل .

وقد الف الراغب الاصفهاني كتابه القيم « مفردات غريب القرآن » فارجع هذه المفردات الى عموماتها او خصوصاتها فى اصل الاستعمال اللغوي، الذى لم يقطع الاستعمال الجديد فى الاسلام صلاته بالقديم فيها .

فهذه الصلاة والزكاة والطهارة ، نجدها فى آية واحدة تمد يدها الى عمومها فتقول « خذ من اموالهم

صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم ، ان صلواتك سكن لهم » .

والكفر نجده يستعمل فى معناه من الستر ، فعم الزراع لسترهم البذور ، ولهذا وردت الآية « كمثل غيث اعجب الكفار نباته » اي الزراع ، ومن هذا الستر تكفير السيئات الذى ورد منه فى القرآن عشرات من الآيات ، مثل « كفر عنهم سيئاتهم واصلح بالهم » ومثل « ليكفر الله عنهم اسوأ الذى عملوا »

ومن العجيب ان نجد هذا الستر فى الكلمة باللغات الاوربية ، فى مثل Cover الانجليزي و Cubrir الاسباني ونحو ذلك فى اللغات الآخذة من اللاتينية كالايطالية والرومانية وغيرهما .

ومن الكلمات التى صارت تجنح الى التخصص كلمة الانتقاد ، فهي كذلك فى العربية وكذلك اختها Critic فى غيرها وهكذا العربية استفادت من التخصيص فى عصرنا ، كما نجد ذلك فى تسمياتها الطيارة والدبابة والفواصة والعوامة والمدمرة والمدفع والحافلة والشاحنة والجرار والجراف والسيارة والدراجة والاسعاف والامن والنظام والاستقرار والمخبر والساعي والنجدة والانقاذ والامين والشوكة والسكينة ، وغير هذه مما يجد باطراد مستمر ، وقد يشتق من بعض هذه ، كالطيار والمطار ، كما اشتق من المطبعة الطباعة وغيرها .

فهذه كلها معان جديدة ولدتها أم التخصص لهذه العربية ، ولا افهم مطلقا من يقولون ان دلالات الالفاظ فى العربية لم يطرأ عليها تغيير فهذه القولة تسيء الى العربية ولا تشيد بفضلها .

بل ان التطور فى الدلالة ، حاصل حتى فى هذا المتخصص . وهذه الكلمة نفسها ، وقد جاءت عفوا فى عبارتنا تطورت فى مدلولها عما كانت عليه بالامس ، فكلمة « المتخصص » الآن لها مدلول لم يكن يعرف على ما هو عليه عندنا ، فهذا متخصص فى فقه اللغة العام وهذا فى فقه اللغة الخاص ، بالمقارنات او الاشتقاقات أو التاريخيات أو ما الى ذلك من نوع الدراسات اللغوية وهذا متخصص فى امراض الكلى وآخر فى لين العظام وآخر فى الجهاز الهضمى او البولي او السمعي او التنفسي او ما الى ذلك من الاجهزة الكثيرة ، زيادة على التخصص فى الاسنان والعيون ، مما اصبح مستقلا بنفسه تمام الاستقلال ، وسيأتي يوم يتخصص فيه طبيب الاسنان بالفك الاعلى ، وآخر بالفك الاسفل ، وطبيب العيون ، بالعين اليمنى وآخر بالعين اليسرى ، وطبيب الآن كذلك .

نعود الى هذا العام الذى خصص فى غير العربية ، لنقارن بين طبيعة المتخصص فى العربية والمتخصص فى غيرها فكلمة Avion فى الاسبانية وغيرها ، وكلمة Aviación فيها وفى غيرها ، تقابلان ما تخصص فى العربية بالطائرة والمطار ، بضم الميم ، كما سنرى .

وهنا تقف غير العربية ، فليس فيها طيار مشتق من Aviar بل فيها Piloto ونحوها ، بما لا علاقة لهابمادة الطيران ، بل هو من Pilotear العام فى الجو والبحر والارض ، وان كان قد اشتق له فيما مضى Aviador فى الاسبانية، ونحوها ، و Aviator فى الانجليزية كذلك ، الا ان الاستعمال الآن جنح الى المعروف بكونه يعم القائد والمرشد فى السماء والارض والبحار ، وقد بدأت العربية تجاري هؤلاء فى هذا الانحراف عن المادة الاصلية ، فصارت تسمي الطيار ، ربان الطائرة او ملاحها . ولا لزوم لهذه المجاراة ، خصوصا وانها تستبدل بالكلمة الواحدة ، وهي الطيار ، كلمتين ، وهما ربان الطائرة او ملاحها ،، زيادة على أن العربية لها فضل السبق فى خلق كلمة طيار للآدمي ، وقد مضى عليها اربعة عشر قرنا ، منذ لقب بها الشهيد جعفر بن ابي طالب رضي الله عنه .

نكتفي بهذا المثال ، مما هو فى غير العربية من العام المخصص ، ونتوجه الى مقابله ، الخاص المعمم .

فمن ذلك كلمة الرائد ، فقد اشتق هذا من الورد الى الماء خاصة ، ثم تعمم بالاتيان الى كل مطلوب ، وكان الرائد الذى يتقدم قومه فى السفر ليهديهم الطريق ، ومنه الرائد لا يكذب قومه ، بل صار الورود عاما فى كل آت مادي او معنوي حقيقي او مجازي ، مثل ورد فلان وورد الخبر علينا وورد الماء والتيار الكهربائي او الضوء ان اردنا .

ومن ذلك كلمة الاستنباط ، فقد كانت خاصة بعمل النبط ، وهو استخراجهم للمياه ، الذى مهروا فيه ، كالفيلاليين فيما مضى عندنا ، ثم صار كل استخراج للمياه يدعى استنباطا ، ولو لم يكن المستخرج نبطيا . ثم زاد التعميم فى كل استخراج للمياه وغيرها ثم تعدى هذا الى المعنويات ، ولازمها حتى اصبح او كاد يتخصص بها فيقع له ما سيقع لرواد الفضاء ، فيطلق عليهم رواد بدون هذا القيد.

ومن ذلك كلمة ماهية التى دخلت الى العربية من « ماه » القمر فى الفارسية ، وهي بمعنى المرتب

الشهري ، ثم اصبحت تطلق على كل مرتب ، شهريا كان أم غير ذلك .

ونظيره كلمة مشهرة التى دخلت الفارسية من العربية بمعنى المرتب الشهري ثم صارت تطلق على كل مرتب شهريا كان أم غير شهري .

ومن ذلك كلمة كفل ، وقد جاءت الي عفوا ، فوجدت أصلها خاصا بالكساء الذى يوضع على ظهر البعير فيعقد طرفاه ويلقى مقدمه على كاهل البعير ومؤخره على عجزه ، فالاكفال غير الاحلاس ، كما فى الامثال ، ثم قيل تكفل الحمار ، اذا حلق ثوبا على ظهره وركبه ، ثم اطلق على كل اشتمال مادي ، ثم معنوي كالنفقة والقيام بالاشياء عامة ومضاعفة الجزاء ، وصارت الكلمة تجنح الى المعنويات فيقال تكفل فلان بالامر ، اذا تعهد القيام به .

وهكذا تتعمم الكلمات فى مدلولاتها التى كانت خاصة ، بالكثرة التى جعلت اللغويين ، يدعون أن الكلمات فى نشأتها كانت خاصة ، وما تعممت الا اخيرا ، حيث ارتقى الانسان ، فأدرك الكليات بعد ادراكه للجزئيات ، وهو ما أدركه المناطقة عموما ، فقال السلم مثلا :

من اوليات مشاهدات
مجربات متواترات

الى آخر اليقينيات التى نشأت من المشاهدات

هذه امثلة من العربية ، اما غيرها ، فكلمة Arrive الانجليزية ، كان معناها الوصول الى River اي النهر ، ثم صار معناها الوصول مطلقا وكلمة Salary كان معناها النقود التى تصرف لشراء الملح من كلمة Sal ثم صار معناها ما يدفع للاجير او الموظف عامة وصارت تجنح الى المرتب الشهري وهكذا نجد فى عدد من اللغات يصبح الخاص عاما ثم تدور الدائرة فيصبح هذا العام خاصا فى معنى جديد غالبا واللغة كائن حي نشيط

ومن هذه الوسائل التى توسلت بها العربية فى توسعها اويمكن ان تتوسل بها الاشتقاق من الزمان والمكان فالزمان ، كالصباح والغداة والمساء والعشاء والضحى والقائلة والليل

فمن الصباح اشتقت العربية اصبح ونحوه ، كما قال الافوه الاودي :

اصبحت من بعد لون واحد
وهو لونان وفى ذاك اعتبار

ومن المساء ، كذلك . مما نجده فى قول ابي تمام :

وما كان الا مال من قل ماله
وذخرا لمن امسى وليس له ذخر

ومن الغداة كما فى قول الفند الزماني :

مشينا مشية الليث
غدا والليث غضبان

ومن الضحى ، قول عمر بن الخطاب : « اضحوا عباد الله » اي صلوا بالضحى

ومن العشاء ، قول الحطيئة :

متى تاته تعشو الى ضوء ناره
تجد خير نار عندها خير موقد

فمعنى تعشو تراها ليلا وتقصدها فيه عشاء .

ومن القائلة ، الحديث « قيلوا فان الشياطين لا تقيل » .

ومن الليل ، قول ابن حبوس الفاسي :

والكل فى علم الامام مقصر
حسب المبرز منهم أن ليلا

وقالوا كذلك : اليل فلان اذا دخل فى الليل ، والليل الكروان ، لتغريده ليلا ، ولهذا اسمه بالانجليزية Nightingale ففيها هذا الاشتقاق من الليل كذلك ، كما اشتقت من الصباح Morning واشتقت الاسبانية من الصبح Madrugar فالاول من Morn والثاني من Madrugada التى يرادفها Alba وهو اول ضوء للنهار ، كما اشتقت الانجليزية من المساء ايضا Evening فهو مشتق من Eve اي انتصاف النهار ، ونحوه موجود فى الاسبانية ، وان كانت قد جنحت به الى معنى ما تؤديه « ظل » فى العربية ، وهو تطور فى الدلالة ، من القيد الى الاطلاق ، او من التخصيص الى التعميم ، كما حدث فى العربية ، للافعال السابقة ، اصبح وامسى واضحى وحتى غدا ايضا ، فصارت من الافعال الناقصة ، وهي فى تلك الامثلة السابقة افعال تامة ، والا لما دخلت واو الحال على ما ندعيه خبرا فى غيرها ، كما راينا ، وكما فى قول الفند المذكور :

فلما صـــرح الشـــر
فأمسى وهو عريـــان

بل ان « ليس » التى ادعي فيها النقصان دائما، وردت تامة ، كما فى قول النابغة :

اذا ذهب العتاب فليس حب
ويبقى الحب ما بقي العتـاب

وهذا مبحث آخر ستناوله عند تناولنا للغة فى تراكيبها ، اما الآن فنحن بصدد مفرداتها

ومن الاستعانة بالزمان ، قولنا الغداء لطعام الغداة ، والعشاء لطعام العشاء

ثانيا ـ المكان ، نقول : انجد فـلان صـار فى نجـد

واسهل صار فى سهل
واجبل صار فى جبل ، قال ابن حبوس الفاسي:

وتفجرت عيـن النباهـة بعدمـا
قد كان خاطرها اكـل واجبـلا

اي انقطع ، والاصل فيه صعد فـى الجبـال واوقل فيها ، فانقطع خبره ، بل الوقل نفسه من هذا ، فهو الحجارة ، وبذلك يكون من قبيل المكـان

واتهم صار فى تهامة
وايمن صار فى اليمن ، وكذلك ، يامن
وعرض صـار فى العـروض ، وهـي مكـة والمدينة ، والطريـق فى عـرض الجبـل ، قال عبد يغـوث :

فيا راكبـا اما عرضت فبلغـا
ندامايَ من نجـران الا تلاقيـا

وهكذا استفادت العربيـة من الزمـان ، كمـا استفادت ايضا من المكان ، فقالت اعرق وبدا وتمدن وغار وابلد واعمن واشأم واجنب واشمل وشرق وغـرب .

فمن نجد ، وغور قول الاعشى :

نبي يـرى ما لا تـرون وذكـره
أغار لعمري فى البـلاد وانجـدا

ومن العراق وتهامة وعمان ونجد ايضا ، قول المزق العبدي :

فان تتهموا انجد خلافـا عليكـم
وان تغمنوا مستحقبي الحرب اعرق

ومن الشام ، قول الشاعر :

سمعت بنا قيل الوشـاة فأصبحت
صرمت حبالك فى الخليط المشئـم

ومن البداوة ، الحديث الشريف « من بـدا جفا » أي من سكن البادية اكتسب منها الجفاء

ومن المدينة ، قولهم تمدن فـلان ، اذا سكـن المدينة .

ومن البلد ، قولهم أبلد بالمكان اتخذه بلدا

ومن الجنوب ، قولهم أجنب القوم ، اذا دخلوا فى الجنوب

ومن الشمال ، قولهم : اشملـوا ، اي دخلـوا الشمال .

ومن الشرق ، قولهم : شرق فلان ، اذا اخـذ فى ناحية الشرق .

ومن الغرب ، قولهم : غرب ، اذا اخذ فى ناحية الغرب ، قال الشاعر فيهما :

سارت مغربة وسـرت مشرقـا
شتـان بيـن مشـرق ومغـرب

وبهذا نرى العربية قد استفادت من المكـان ، استفادتها من الزمان استفادة واسعة، وهو ما لا نجده فى غيرها ايضا كذلك فقد نجـد فى الاسبانيـة من الانـدلـس Andaluzada و Andalucismo فالكلمة الاولى يراد بها المبالغات الاندلسية ، والثانية اللهجة كذلك ومـن قشطيليـة Castillanizar ، والمراد بها الاسلوب المنسوب لكستيليا يلقن للاجانب عنها ، فالاشتقاق اذن حصل بعد النسبة لها ولا نكاد نجد هذا الاشتقاق فى غير هاتين الناحيتين ، وطبعا لا يتوقع ان يوجد شيء من ذلك فى الانجليزية التى تتحرك فى اشتقاقها بمساعدة فعل الكينونة ، ان لم يكن هناك مصدر تعتمد عليـه مباشـرة ، وكذلـك الشأن فى الالمانية والفارسية والتركية .

نعم ، قد سبق ان « Arrive » ماخـوذ مـن « River » ولكن قواميسهـم في Etymology تذكر ان الانجليز أخذوا هذه من الفرنسية بعد اشتقاق الكلمة فيها

حقيقة ان الاسبانية اشتقت من الطريق فقالت: Caminar مـن Camino ولكن الملاحـظ فى هـذه الحركة اكثر من الصيرورة فيه ، ولهذا لم نذكـره

في هذه الظروف المكانية ، وبعبارة ان الطريق ، كان بعد الطروق ، فهو مأخوذ من الفعل لا الفعل مأخوذ منه ، ومادة الفعل اوسع منه فهو فعيل من الطرق بمعنى مفعول منه .

وبالجملة فالزمان والمكان لهما اهمية خاصة في العربية ، ولذلك الف المرزوقي الاصفهاني من رجال القرن الرابع واوائل الخامس كتابه القيم « الازمنة والامكنة » وكان استاذنا المستشرق Paul Kraus اذا سأل احدنا عن هذا الكتاب ، فأجاب بأنه لا يعرفه ، ينحى عنه بالتجهيل والتقريع . لان مثل هذا الكتاب ، يجب ان يكون كل طالب في العربية على علم به واطلاع عليه .

ومهما يكن ، فاننا زيادة على تلك الوسائل التي ذكرنا ، لنا وسائل اخرى نجملها فيما يلي :

الالوان ، كتسمية نوع من الحيات ، باسم الاسود، والتسمية بأحمر ثمود، والاعتماد على اللون، نجده حديثا في مثل البطاقة الرمادية والبطاقة الخضراء ، المعروفتين لكل سائق سيارة .

الاشكال ، كما هو معروف عند الموقتين ، في نحو نحو «الربع المجيب» و «الربع المقنطر»،وعند اصحاب الهندسة ، كالمربعات والمثلثات ونحوهما ، وقد تتعاون الالوان والاشكال والاصوات،مكما حصل هذا في « المربع الاحمر » لاصحاب زيت لوسيور . وقد ذكر النحاة امثلة لذلك ، في نحو طاق للضرب ، وطق لوقع الحجر ، وقب لوقع السيف ، وساق حر ، لطائر ، قال الشاعر :

وما هاج هذا الشوق الا حمامة
دعت ساق حر ترحة وترنما

- وقد وقف فقهاء اللغة عند هذه الكلمة وقفة طويلة ، يعللون اشتقاقها .

اما النحاة ، فعقدوا لهذا باب حكاية الاصوات ، كما ان اللغويين القدامى والمحدثين ، والفلاسفة في القديم ايضا ؛ استرعى نظرهم

ذلك ، فكان منهم من ادعى ان الالفاظ اللغوية كلها ، انما نشأت حكاية للاصوات ، وهذا لا يعنينا، ان كان صحيحا ام لا ، بقدر ما نستفيد منه ، وهو كائن في اللغة ، ويمكن الاستفادة منه ، وقد راينا في اللغات الحية ، شيئا من هذا ، كما في تسمية « الطبيلة » باسم طمطم Tomtom وتسمية لعبة « البينكبونك Ping-pong و Croquet ربما تكون كلمة « التراكتور » من هذا القبيل . وعلى فرض انها ماخوذة من اللاتينية ، فان هذه قد حاكت الصوت ، فيما سمت به قديما ، وقلدت في ذلك حديثا . قال لي طالب اسرائيلي ، كان يحضر علي درس الفارسية ، اني ادركت تماما معنى كلمة « كرفتن » اي القبض والاستيلاء ، ولا شك ان ذلك كان في خفة وانتشال ، وهذا طبعا يفهمه الاسرائيلي اكثر من غيره .

الاساطير ، فتسمي طائرة من الطائرات ، مثلا، باسم العنقاء ، او آلة هائلة باسم الغول ، وقد فعلت هذا انجلترا فسمت الآلة الرافعة للاثقال العظيمة باسم Bogey ومعناه الغول ، واخيرا وجدنا اميركا تلتجيء الى اساطير اليونان ، فتسمي باسم الشمس وغيرها Apollo ثم تستعين بالارقام بعد، فيكون ابولو واحد واثنين الى خمسة عشر ، وهكذا دواليكم ، وهي التي سمت طائرتها المدمرة Phantom اي بعبع .

وقد يلعب الخيال ، فيصور الاشياء وهي لا ترى ، بصورة ما ، كدائرة السوء ، او يضفي عليها لونا ، كالحمى الصفراء والاسودين للتمر والماء او يجعلها تصيت كنداء المجهول ، وهذا في الواقع من صنيع الشعراء ، واصحاب الخيال الخصب ، ولكنه اذا ما شهر صار يؤدي ما تؤديه الاسماء المعتادة فمن منا يجهد فهمه في ادراك « صوت الضمير » و « دائرة السوء » التي جاءت في القرآن الكريم ، وادركتها الافهام بلا كلفة او مشقة ، كما ادركت « رؤوس الشياطين » وقد جاءت في القرآن ، وادركت « انياب اغوال » في شعر امريء القيس :

ايقتلني والمشرفي مضاجعي
ومسنونة زرق كانياب اغوال

وبعد هذا كله فللغة ان تخترع ، وهذا من علامة حيويتها واستجابتها الى كل ما يجد في الحياة ومتطلباتها ، وقد جاء الاسلام بجديد فاحتاجت اللغة الى جديد في اللغة ، فاخترعت الفاظا قرآنية ، لم يكن العرب يعرفونها ، وخصوصا فيما يتصل بالآخرة من تصوير اهوالها وعذابها او نعيم جناتها ، كالسلسبيل ، والصعود ، وسقر ، وسجين ،

وطوبى ، وغساق ، وغير هذه ، وان ادعي كونها معربات .

وهذا ليس بدعا في اللغات عامة ، وعندنا كلمة Gaz تعيش في كل مكان . ولا يعرف لها اصل البتة.

واذكر ان احدهم صنع شيئا ، فدخل عليه طفل سأله عن اسم المصنوع . فسأله هذا الصانع : كيف تسميه ؟ قال له . كذا ، فسماه بذلك . ولم يكن لذلك الاسم اصل من اللغة ، وقد وضع احدهم رسوما متكسرة . على شكل زوايا حادة متسلسلة ، ودعاها « كيكريكو » ورسم الى جانبه رسما آخر ، عبارة عن سلسلة من انصاف دوائر ودعاها « امبو » ولكنه وضع الاسمين ، ودعا تلاميذ من مختلف الجنسيات واللغات وسألهم : اي الرسميين « كيكريكو » فكلهم اجاب بانه صاحب الزوايا الحادة ولا شك انهم يدركون العلاقة بين تتره مك التركية والاضطراب و trouble والواقع ان الرسم له صلة بما يعرف عند الرسامين ، باسم « كروكي » . واعرف سيدة اخترعت كلمة « زوطوطو » فسارت الكلمة في الوسط العائلي ومن الكلمات المخترعة كلمة « روكوكو » Rococo وهو من اسماء الزخارف ، وكلمة « كوداك » Kodak .

ولا شك ان هذه الكلمات ، سيزداد عليها . ولن تقف مكتوفة ، بل سيشتق منها فيما بعد ، شأنها شأن باقي الكلمات في العربية . سأل الضيف صاحب المنزل عن طعام ، قد اتى عليه ، فأغاظ صاحب المنزل الاب الفقير ، ما اسم هذا الطعام ؟ فأجابه بغيظ : « الكجدور » فقال له : « على ش ما كجدرتوشي منو بزاف »؟ وهكذا اشتق من الكلمة الغريبة عليه، بمجرد فهم مدلولها ، كما اعتقد ، وهي طبيعة العربية الام الولود ، التي تمكن اولادها من حرية التصرف ، فيشتقون من « الاستيك » ، فعل « استك » وغيره، كما يشتقون من da le المركبة في الاسبانية من فعل أمر من صدر dar اي الاعطاء ، والمفعول فكان التعبير dale اي اعطه ، ولكننا قلنا دالا عليه ويدالي الى غير ذلك من كل ما يدخل الى العربية من كلمات لها اصولها او مخترعة لا اصول لها ، كما تقدمت امثلة له .

وبعدما تعرضنا للتعريب في مفهومه القديم والحديث والوسائل التي تمكننا من سد الحاجة التي نشعر بها حيال هذا العصر واختراعاته المتلاحقة ، وما تتطلبه حضاراته المختلفة .

نلقي النظرة الاخيرة على ميدان التعريب ، يكون بهذا تلخيص ما تقدم وتبسيط بعض الجوانب منه ، بأمثلة منها ما يعايشنا ويسايرنا في تنقلاتنا اليومية ، ونحن في مضمار الحياة ومعترك الاحداث .

ولا شك أن امامنا مشاكل متنوعة في هذا المضمار وذلك المعترك . فهنالك العامية ، التي يجب ان نأخذ بيدها ونسمو بها الى مستوى راق . بدل ان ننزل اليها من هذا المستوى الراقي . وهنالك الفن ومذاهبه . كما قيل ، فهو يصور الحياة في لوحاته الزاهية والشاحبة والقاتمة ، برسومه وموسيقاه ، التي اصبحت تتطور مع الايام بأدواتها واصداحها ، الى جانب ذلك الرسم الذي لا يقتصر على المشاهد ، بل اصبح يجاذب الكتابة ويرقى الى الرموز ، التي قد تعجز عنها الكتابة نفسها ، فهو يسبح في عوالم خارقة للعادات وهو يخاطب او يحاول ان يخاطب وجدانات، بلغات لا تقوى عليها الكتابات والاصوات ، فهو حر طليق لا يعترف حتى بسلطان النفسيات والمسجلات للخطرات الرتيبة ، في سهولة تراد منه او اسلاس ينقاد به . انها الثورة التي يريدها الخيال الجامح في اعلانها المكسرة لاصنامها . وهناك النحت ، لا يقل في غاياته عن غايات الرسم ، وان كان طريقه وعرا ، تكتنفه الصخور عليه ان ينحت منها ، والاوحال عليه ان يفوض فيها فهو على رعونته ، اصبح لا يقل عما عليه الرسم في اطيافه واحلامه ، ووداعته وثوراته .

وهناك الكلام ، وهما كما يقول الشاعر :

ان الكلام لفي الفؤاد وانما
جعل اللسان على الفؤاد دليلا

والفؤاد هذا قلب قلب ، يقلبه من هو كل يوم في شأن ، فعلى اللغة ان تسجل خطراته ، وان تضبط دقاته ، وهي كما قال شوقي :

دقات قلب المرء قائلة له
ان الحياة دقائق وثوان

نعم ، انها دقائق وثوان ، ولكن هذه الدقائق والثواني ، ما اعظم متطلباتها ، وما اشد ما يتحمل الانسان من اماناتها ، وقد ابت السماوات والارض والجبال ان يحملن هذه الامانات ، كما قال تعالى « انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين ان يحملنها واشفقن منها وحملها الانسان انه

ان ظلوما جهولا » هو ظلوم عليه ان ينصف نفسه وينصف الناس . وهو جهول عليه ان يعلم ويتعلم ما يلبي رغبات الافئدة في هوائها. والعقول في مناطقها، والاجسام في علالها واسقامها ، وصحتها وملاذها . من المشاهد والاذواق والمشاعر والاسماع .

فهذا فن الكلام في آدابه ، التي تتولد وتتفاعل في الوانها وامشاجها ومعطياتها ومقاصدها ، وجميعها في تطور مطرد وفي انفصال هلامي مستمر ، وفي استقلال ببيء اصحابها واوطانها ومجتمعاتها وافكارها وثقافاتها ، بعد اللغات ، وقد أصبحت تعد بالآلاف.. واصبح على الانسان ان يفهم كل شيء، وقد واجه في حياته كل شيء ، فخيمت عليه الظلال من كل مكان ، ووجهت عليه الانوار والنيران ، فعلى هذه اللغة ان تتسلح بكل شجاعة ، وعليها ان تقوم برسالتها ، بكل عزم وقوة، فتمثل دورها في جميع المحافل خير تمثيل ان كانت على قيد الحياة .

ومن وراء هذا كله الفلسفة التي اصبحت من هذا الجيل مطالبة بالجديد ، والا فعليها ان تنسزوي من مسرح الحياة الجديد في جميع فروعها ، حتى « الميتافيزيقا » نفسها ، فمهمانها صعبة في هذا العالم الصعب المعقد ، الذي لا يرحم احدا ولا يحجم عن الاخذ بتلابيب العلماء العظام والفلاسفة الكبار ، فعليهم ان يفهموا وييسطوا وعليهم ان يقنعوا العقول وهي في زيفانها وصراعها للايكترونية العملاق .

وهذا العلم لم يبق بالرتابة او القداسة التي كان عليها ، فهو يطارد مطاردة لا هوادة فيها ، منذ بداية هذا القرن ، واشتدت المطاردة اثناء الحرب الاخيرة ، وازدادت اشتدادا بعدها ، وصارت الدنيا تميد بها ، واذا بالافلاك والنيرات تناجي الانسان فيطالب العالم بأن يحمله الى هذه الكواكب والافلاك ، فلا يجد المسكين مناصا من ان يستجيب لمطالب الانسان الجبار ، فيبني له المراكب الفضائية ويزوده فيها بما يضمن له السلامة ولا يحرمه مع هذا من الاتصال بالعالم الارضي لحظة ، ويتكفل بالعودة به اليه بعد ان يحط رحاله بتلك الكواكب ويطوف في ارجائها ويحمل من متاعها ويستعمر من بقاعها ، فلا يلبث بعد عودته ان يطالب العلم بدراسة هذه العوالم العليا .

فالجغرافي عليه انيخترع ما يشبه علمه لهذه الكواكب ، بل عليه ان يخترع اسما خاصا لهذا العلم، والجيولوجي عليه ان يدرس طبقات هذه الكواكب ، ويطبق على ذلك قواعد ما يشبه علمه . كما عليه ان يخترع اسماجديدا لهذا العلم ، والكيماوي عليه ان يحلل عناصر ما في هذا الكون او الاكوان ، ويسمي تلك العناصر بما يخترع لها من اسماء ، لان المداولات قد تكون غريبة عن هذا الكون ، وليس لهؤلاء ان يقولوا لعرائس تلك الافلاك :

صوني جمالك عنا اننا بشر
من التراب وهذا الجسم روحاني

او فابتغي فلكا تأوينه ملكا
لم يتخذ شركا في العالم الفاني

لان هذه العرائس تاوي فعلا هذه الافلاك فلم تتخذ لها شركا في عالم غير عوالمها ، ولكن الانسان هتك استارها وكشف خدورها فتجلت مفاتنها للابصار ، وانبهرت لاسرارها البصائر ، فلا اقل للغة من الوصف ولا مناص لها من الكشف ، بكل دقة وكل تبيان .

ان هذا الاكتشاف الذي ستتلوه اكتشافات ، قد تطلب آلاف الآلات والادوات ، فعلى اللغة ان تسمي كل ذلك بدقة وتفهمه للافهام وليس بقادر على هذا الا اهل العلم انفسهم، وقد وضعت اللغة امامهم وبين ايديهم ما تملك من ادوات التعبير ، ووسائله كالاشتقاق من الحقيقة والمجاز وكالتشبيه وحكاية الاصوات والنحت والتخصيص والتعميم وكالاستعارة من اللغات بعضها من بعض وكالاختراع للكلمات وخلقها من العدم ، اذا لم نجد في هذا الوجود ما نستفيد من لونه او شكله او رائحته او حركته او ما الى ذلك او مما يسعفنا بمماثلة ما ولو في الوهم او الخيال الذي يساورنا او يخلف لنا من اساطيره وخرافاته .

لقد سمى آباؤنا سائل الكلونيا، باسم «مسيكو» فاسعفتهم الرائحة ، واخترع « شيكسبير » اسم « دولار » قبل ان يكون دولار وسمى آباؤنا ايضا الدراجة ، باسم « عود الريح » معتمدين على السرعة في الحركة ، وكان هذا تلقائيا منهم ووفقوا كل التوفيق (وفي الفارسية « دوجرخه » اي فلكتان) اذن فالعزم اولا هو ما نتذرع به ، في مواجهة التعريب ، وفي القديم واجه القوم ، فما وهنوا ولا ضعفوا ، وحلوا مشاكلهم في تدوين الدواوين ، ونقل العلوم المختلفة والآداب المتباينة والعقائد المتضاربة الى لغة الضاد ، ولم يكن اولئك اقدر منا في العربية ولا افهم منا لتلك العلوم

والآداب وغيرها ، بل كانوا دوننا فى ذلك ولا شك ، الا انهم كانوا يتوفرون على شيء لا تتوفر عليه ، وهو الشعور بالعزة والكرامة وانهم سادة يجب ان يخضعوا لهم ؛ لا ان يخضعوا لغيرهم ، وبذلك اخضعوا لغتهم ؛ فى يسر ؛ كل ما وصلوا اليه أو اتصل بهم .

هذا هو موقفنا الذى يجب ان نقفه ازاء هذا التعريب ، وهو موقف ؛ لا محالة ، يدعو الى التخصص ، بعد تلك العزيمة ؛ والى النهل من العربية والتعمق فيها ، حتى يمكن كل عالم او صانع او مغن او متفلسف ، ان يتولى ما يزاوله او يعانيه بالتعريب .

وعليه ، فالطبيب يتولى تعريب ما يتصل بطبه. والمهندس يتولى ما يتصل بهندسته ؛ والمتفلسف والمغنى ؛ كل لما يتصل بهاويته والصانع كذلك يعرب ما يتصل بصناعته ؛ وقد مكناه من ذلك بالتعليم ؛ الذى يسير فى ركبه هذا التعريب .

ولا نهمل مع هذا استشارة الشعب ، بل نعود الى قاموسه الحي ، الذى يمدنا بنحو « عود الريح » و « مسيكو » و « والصدفة » و « الكسكاس » و « غويلة » و « ترابية » ، وغير هذه من الكلمات التى تخضع للعربية وقوانينها ، كما نتلقى منهم من غير مشقة ما عربوه هم مثل يكمي ، من Quemar الاسبانية والكرو من Cigarro الاسبانية ايضا الا اننا نخضع الكلمة لقانون العربية ، فلا نتركها لمتنها هذا ، وفى آخرها واو قبلها ضمة لازمة ، بل تختم بهاء مثلا ، كما فعلنا فى ينيه ويليه وسيبويه ، وسميت الصورة السالبة باسم « عفريتة » فى عامية الشرق ، فلنا ان نستعير حتى من العامية .

كما نستعين برصيدنا فى الخارج فالاسبانية اخذت كلمة « كحال » Oculista لطبيب العيون وعنها اخذتها باقي اللغات الاوربية كما اخذتها مباشرة الفارسية فالتركية . فلماذا لا نستعملها نحن العرب فنجارى اللغات الحية التي استعارت منا ولنا الفضل عليهم ؟ ربما تانف من هذا ، فلم لم يانف غيرنا ان يسموا طبيب الاسنان بالسني Dentiste كما فى اللغات الاوربية والتركية ؟ وعلينا ان نجاري غيرنا فى ذلك، وقد استعملت هذه التسمية « دنتيلة » فى الاندلس وان كانت فى الاحتفال يبدو الاسنان ، وادعى بعضهم ان لها اصلا فى الفصحى ، وتوقف الزبيدي هنا .

والفارسية ثم التركية سمت الهيدروجين « مولد الماء » كما تقدم ، واستعملت التركية « تهلكة » بدل « خطر » ، والاسبانية « انبوب » Embubo بدل قمع . وهكذا نجد الفاظا نستفيد من وجودها فى الخارج او نختارها منه .

وهذا عمل يحتاج الى تعبئة عامة ، وكفاح يشارك فيه الجميع : الحكومة بتدخلها فى تعريب اللافتات والتذاكر واللوائح والصحافة باختيار الكتاب والمثقفين حقا والمتخصصين فى العربية تخصصا علميا . فلا تترك الصحافة فى ايدي من لا يحسن لغتها من المتطفلين عليها ، والتمثيل المسرحي كذلك له رسالة فى هذا التعريب ، فعليه أن يختار الموضوعات التى يستسيغها الشعب حتى يقبل عليها فى لغتها ، فتعمل فيه بطريق الايحاء ، وكذلك التمثيل الخيالي ومسرحه فى الواقع افسح من غيره، والأغاني العربية وحتى الشعبية تخدم كذلك التعريب، اذا احسنا استعمالها واخترنا اصواتها الجميلة والحانها السجية واعددناها بالموسيقى العذبة المؤثرة والاذاعة والتلفزة من اقوى دعائم هذه التعريب، فهي الصوت الذى يصبحنا ويمسينا والمشاهد التى تحيينا وتسامرنا وتناجينا .

اما المدرسة والكتاب فغني امرهما عن البيان، ولابد من الاستمرار والتذكير ، فقد كنت كتبت فى كون العمالة بالكسر ، فكان لهذا صداه فى اذاعة تطوان وفاس ولكن التذكير بهذا انقطع فعاد الناس الى العمالة بالفتح وعدت انا معهم الى هذا الضلال على علم به مني .

واخيرا ، لقد تركنا المفردات وما يمكن ان يستفيد منه التعريب فى حركته الدائبة بنشاط هذه الاحياء البشرية وبقي علينا ان نوجه العناية الى المفردات فى تركيبها ، أو تعريب الاساليب ، ان صح هذا التعريب .

وموقفنا هاهنا لن يطول ، لانه لن يكون معربا بحق وحقيقة ، فالعربية قد انتهت الى تراكيبها ، وليس فى الامكان ابدع مما كان فى بنيتها ، وارتفعت الاقلام عن تسطيرها وجفت الصحف بما فيها .

الا ان هناك ، جوانب لا تمت الى الخلق والابداع من جديد ، بل هي فى الواقع محافظة على ذلك الكيان اللغوي الذى هو بالنسبة اليها القلعة العتيدة والحصن الحصين ، الذى يجب الدفاع عنه الى آخر قطرة من دماء هذه اللغة الأبية المستميتة الصامدة .

ان العربية كما قلنا ، كريمة كأصحابها مضياف تكرم نزلاءها ، فوجود مائات او آلاف من الكلمات الدخيلة فيها لا يهدد حوزتها ، بل بالعكس يزيدها قوة ويكسبها منعة ، فى مواجهات كل الطوارىء .

ولكن العبث بالنظام المتبع فيها ، واحداث الفوضى فى مجتمعها ، هو الذى لا تقبله بحال . وهو الذى يجب الا تقبله ، كما لا يقبله اي عرف من اعراف اللغات قاطبة ، وهي لغات لها كرامتها ونها وجودها الازلي والخالد خلود الدهر .

ونعود فنقول ، اننا لن نطيل فى هذا التعريب التركيبي . وسنقف وقفة قصيرة ، عند بعض الاعراض ولا نقول الامراض التى طرات على هذه العربية فى عصرنا المريض برجاله ومثله العليا .

فأول تلك الاعراض ، بل أول تلك الامراض ، مع المعذرة ، مرض حل بمستقبل هذه اللغة ، نعم ، حل بمستقبلها مع الاسف ،ولكنه حل بمستقبلها السلبي ، لا الايجابي ، لحسن الحظ ، ولله الحمد على كل حال .

من المعلوم ، ان الافعال فى اللغات ، هي مفاتيح تلك اللغات ، بل هي حياتها التى بها يكون حيوانها ، والحيوان فى الواقع ، ما هو الا الحركة الجياشة ، كالفيضان والغليان والثوران والجيشان نفسه ، وبهذا الاعتبار ، قال تعالى : « وان الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون » وبذلك تكون هذه الكلمة فى مدلولها الآن قد انحرفت عما خلقت لاجله .

وهذا لا يهمنا الآن ، فقد انتهينا من المفردات ، كما قلنا وعلينا ان نعالج مستقبل هذه اللغة فى افعالها السلبية ، وهي التى تحتاج الى علاج ناجع وسريع.

نقول سوف نفعل ، كما نقول سنفعل ، وهذا الاخير مختزل من الاول ، وكان قد عمل فيه هذا الاختزال ، فقيل سو افعل ، وسف افعل ، واخيرا سافعل ، فوقع الاقتصار على حرف السين وحده ، واهمل الاقتصار عليه مع الواو او الفاء ، وحوفظ على الام الرؤوم « سوف افعل » وهذا جميل فى هذه العربية التى تتجدد وتتطور ، ولكنها لا تتنكر للماضي ، ولا تعق الأمومة والأبوة .

هذا هو الفعل المستقبل الموجب فى العربية ، سلمه الله من كل بلاء ، ودرأ عنه كل اذاء ، فبقي كيوم ولدته امه على فراش الصون والعفاف

ولكن المستقبل المنفي وقع فيه من المصائب ما لا عين رات ولا اذن سمعت بمثله فى غير هذه اللغة الشريفة نسمع دائما ونقرا دائما ، وخصوصا فى صحافتنا المسكينة هذا التعبير :

« سوف لا يأتي فلان » ونسمع ونقرأ فى صحافتنا المنكوبة ، ما هو افظع من هذا وادهى ... نسمع ونقرا :

« سوف لن يأتي فلان » ،، فض الله فم من كان اول الناطقين ، بتلك العبارة الممسوخة ، وهذه العبارة الملعونة من السماء ، لان الله ما انزل بها من سلطان ، ولان كتابه الكريم قال : « لن تراني ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني » فعلمنا كيف نعبر بالمستقبل المنفي « لن تراني » وقابل به المستقبل المثبت « فسوف تراني » .

اذن فاداة الاستقبال فى الفعل العربي المنفي ، هي الأداة « لن » فنقول « لن يسافر فلان » فى المستقبل من الزمان ، ولا نقول «سوف لا يسافر»،، ومن المخجل ان تستعمل هذه العبارة ، فى التمثيلية التى جابت من مصر فعرضت فى تلفزتنا بمناسبة المولد الشريف ، وهي تحكي حوارا كان على عهد الرسول ، عليه الصلاة والسلام .

وافظع من هذه العبارة ، هو « سوف لن يسافر » ، فتلك جهالة جهلاء، وعدم اكتراث باللغة، التى ظن اصحابها اليوم ، كأنهم قيل لهم فيها : « تكلموا كيف شئتم » ، وصدق الشاعر :

رايت الحلم دل علي قومي
وقد يستجهل الرجل الحليم

ان مثل هذا التعبير انما هو استعمار انجليزي تعدى الى اللغة بعد ان اعتدى على اصحابها ، وما ابغضه من استعمار، تخلص منه الناس، ولم يتخلصوا من ادوائه العديدة، التى منها هذا الداء الوبيل ، فقد تلقى احد الكتاب الطفيليين ، وما اكثرهم واسمجهم، مثل هذ التعبير الانجليزي I shall not come فقد عليه عربيته المعذبة ، فى قبضته الاثيمة ، فقال : « انا سوف لا آتي » او « سوف لن آتي » ولو امعن جدا فى التعبير الذى سحره ، لقال : « انا سوف لا آتيان » هكذا ، وهو تركيب لا يوجد الا فى الانجليزية والالمانية بهذا النسج وهذا الترتيب ، ولا نعرف له مثيلا فى لغة اخرى غيرهما ، وهكذا نجد

العبارة المذكورة ، تكون في الالمانية

ich werde nicht kommen

سواء بسواء ، فتجعل اداة النفي تالية لاداة الاستقبال، كما في الانجليزية وفي تعبيرنا هذا الممسوخ « سوف لا » او « سوف لن » كما تقدم ، بينما الفارسية تدخل اداة النفي على اداة الاستقبال ، ولا تجعلها تالية لها ، فتقول في نفس الجملة « من نخواهم آمد » فالنون نفي وتخالف هذه جميعا التركية ، التي تاتي بالمصدر المرخم وتلحق به اداة النفي ، ثم تأتي اداة الاستقبال فتقول « بن كله ميه جغم » ويبقى بعد هذا اللغات المتفرعة من اللاتينية، كالاسبانية ، فانها تاتي باداة النفي ثم المصدر المرخم ثم اداة الاستقبال Yo no vendre

ويلاحظ ان هذه اللغات ـ ما عدا الانجليزية ـ تصل ضمائر الفواعل او علاماتها ، باداة الاستقبال ، وانها جميعا تستعين بالمصادر ، في صوغ فعل الاستقبال ، الا ان الانجليزية وليس لها مصدر غير مؤول ، تحذف الحرف الموصولي to والالمانية تاتي بالمصدر كما هو ، بينما الفارسية والتركية والاسبانية ترخم هذا المصدر عموما .

ثم انها تتحد في كونها لها اداة تدخل عليها او تلحق بها اداة النفي ، وهي واحدة الا في الانجليزية، فتختلف بحسب التكلم وغيره ، فهي للتكلم كما رأينا shall ولغيره will وقد يتبادلان قصد التأكيد كما يقول شيلي Our breath shall intermix وربما استعمل هذا الفعل في معناه الاصلي ، اذ لا مهمة له في الاستقبال

« We shall become the same. We shall be one spirit »

وكذلك العربية لها اداتان ، واحدة في الاثبات، وهي « سوف » او ما اختزل منها ، وواحدة في النفي وهي « لن » لا غيرها .

ولعل « سوف » كانت ظرف زمان في اصلها ، بنيت على الفتح للازمتها الظرفية ، وان كان المستشرق Bergstraesse يرى انها مستعارة من الآرامية Saupa ومعنى هذه « النهاية » او « الغاية » ، فكان معنى « سوف افعل » اني افعل في النهاية والغاية .

يقول علماء الألسن ، ان اللغات السامية ـ ما عدا الاكادية منها ـ ليس لها الا زمانان ، ماض قد انتهى ، وغيره لم ينته ويشمل الامر والحال والاستقبال .

فكون العربية استعانت بسوف ظرف زمان ، او saupa الآرامية على تعيين مستقبلها ، هذا شيء ليس ببعيد في اللغات فالانجليزية ، في غير التكلم خاصة ، والفارسية عموما ، استعانت بفعل الارادة ، الذي ما زال بهما يستقل بنفسه احيانا ، فكان الاصل في « سيفعل » مثلا هكذا « يريد الفعل » وفي التكلم استعانت الانجليزية ، بكون الفعل ملزما ، فكان الاصل « سأفعل » هكذا « يلزمني الفعل » فهو الفاعل على الحقيقة ، وفي الالمانية استعين بفعل اصبح ، فكان الاصل في التعبير السابق هكذا « انا لا اصبح اتيانا » ويستعمل كذلك مستقلا وهذه الاستعانة نجدها في نحو «غادي» او «ماشي» او «خصني» او «نحب» التي تستعمل بالعامية كما يستعمل الرواح والود بالشرق

وليس لنا اداة لا تؤدي الا هذا الاستقبال المجرد ، سوى الاداة التركية والاداة الاسبانية الآتية من اللاتينية في غير العامية

هذه مقارنات في سوف مثبتة في العربية ، ومطلقة في غيرها .

وبقيت « لن » فما اصلها ؟

اختلف فيها ، فمنهم من يراها خلقت كذلك ، ومنهم من يرى ان النون ، حلت محل الالف من « لا » للتأكيد ، ومنهم من يرى ان اصلها « لا ان » فكان الاصل في « فلان لن يفعل » فلان لا ان يفعل ، فهي تفهم كون فعل لن يقع في الاستقبال .

ومهما يكن فجميع هذه اللغات ـ ما عدا التركية ـ استعملت النون للنفي هنا ، اما التركية فالميم وهي اخت النون التي طغت عليها تماما بالفارسية .. والنتيجة ان الفعل المستقبل في العربية ، اذا نفي يكون بلن وحدها ، كما قال الشاعر :

هي الشمس مطلعها في السما
فعز الفؤاد عزاء جميلا

فلن تستطيع اليها الصعودا
وان تستطيع اليك النزولا

ومن قبل بثلاث وعشرين سنة كتبت في اداة الاستقبال ، فاهتمت بذلك مجلة الروس البيض بتونس وابدته في مجلتها « Ibla »